الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

التنمية كحل للتوتر في باكستان وأفغانستان!

د. عبدالله المدني

في الوقت الذي تتصاعد فيه أعمال القتل والتدمير والإرهاب في كل من أفغانستان وباكستان ما بين القوات النظامية المدعومة من الغرب من جهة والجماعات الميليشاوية المتشددة المدعومة من تنظيمي القاعدة وطالبان وقوى أصولية أخرى في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى من جهة أخرى، هناك من لا يزال يراهن على إمكانية تحقيق الاستقرار والسلام في هذه البؤرة المتوترة من العالم منذ نحو ثلاثة عقود.

ولعل في مقدمة هؤلاء الرئيس الأفغاني حامد كرزاي الذي حينما جاء كرئيس انتقالي لأفغانستان في عام ٢٠٠١ كان يحمل معه فكرة تحويل بلاده المغلقة إلى جسر للتجارة الإقليمية. وكان مضمون الفكرة ببساطة هو تحويل جبال "الهندوكوش" من منطقة نزاع إلى حوض للتبادل التجاري الحر ما بين دول الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وجنوب آسيا، خصوصا وأن هذه الدول في مجملها تحتضن ثلث سكان العالم.

لقد وجد كرزاي ورفاقه والكثيرون من الأفغان المتنورين أنه بالامكان تحقيق السلام من خلال التنمية، وأن بلدهم الفقير يمكن أن يصبح غنيا بطريقة أسرع مما لو اعتمد على المساعدات الخارجية. غير أنهم سرعان ما اكتشفوا أن تحويل الفكرة من مجرد حلم إلى واقع أمر صعب بسبب قوى التخلف والإرهاب التي كانت ولا تزال تستهدف حركة التجارة و قوافلها ومعابرها بالرصاص والمتفجرات والألغام. ولعل أبرز دليل على صحة ما نقول هو إقليم بادغيس الفقير في شمال أفغانستان، الذي يمكن أن يتحول إلى أحد أهم نقاط الاستراحة والتزود بالمياه والطعام للقافلات التجارية القادمة من غرب الصين ودول آسيا الوسطى، لولا حماقات الطالبانيين وأتباعهم التي دمرت شبكات المياه والإنارة المتواضعة في هذا الإقليم وزرعت أرضه رعبا وخوفا. بل والتي لا تزال تستهدف حركة تعليم النساء وتثقيفهن باعتبارها العنصر الرئيسي في التنمية بحسب ما قالته رئيسة دائرة الشؤون النسوية في الإقليم "حليمة راليبيما" والتي أضافت أنها لم تستطع مبارحة إقليمها لمدة عامين وتحول كل ما فعلته من اجل بنات جنسها منذ عام ٢٠٠١ إلى هباء بسبب تهديدات الطالبانيين لها ولمن يعملون معها.

وهذا تحديدا ما اشتكى منه كرزاي وأوضحه لمضيفيه الباكستانيين في ١٣ مايو المنصرم، ولاحقا في القمة التي جمعته مع نظيريه الإيراني والباكستاني في طهران. حيث اشتكى من عنف متصاعد يستهدف مشاريع التنمية الاقتصادية في صورة حرق الآليات ومنشآت البناء وقتل العاملين فيها ونهب ما تطاله الأيدي من بضائع وأدوات. وهذا أيضا ما اكتشفه الصينيون قبل وقت طويل جدا، فلجأوا إلى تأجيل الكثير من مشاريعهم في أفغانستان لسنوات طويلة خوفا من القتل والخطف والخسارة المادية.

وبطبيعة الحال لم يحصر الرئيس الأفغاني مشاكل التنمية في بلاده في تصاعد العنف والإرهاب وحده، لكنه اعتبر العنف و الإرهاب هو التحدي الأكبر وربما الأثقل وطأة من عوامل أخرى مثل ضعف البنية التحتية وانعدام الكفاءات المطلوبة.

ويبدو اليوم أن ما تخوف منه كرزاي ورفاقه قد تحول إلى مأزق كبير في ظل اضطرار مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال إلى هجر منازلهم ومدنهم في المناطق الحدودية ما بين أفغانستان وباكستان بسبب استمرار الأعمال الحربية والقتالية. وهذا المشهد الذي يذكرنا بما كان يجري زمن الاحتلال السوفياتي لأفغانستان – مع اختلاف اتجاه الهجرة ونمط العلاقة ما بين كابول وإسلام آباد – لاشك انه يفرض تكاليف إضافية للتنمية، كي لا نقول باستحالة القيام بالتنمية المطلوبة الحائلة دون المنازعات والحروب.

صحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية و الدول الغربية الحليفة لها وبنك التنمية الآسيوي وحلف الناتو قد طورت وزادت مساعداتها التنموية خلال الأعوام الثمانية الماضية لأفغانستان كوسيلة من وسائل القضاء على التشدد والتطرف والأعمال الإرهابية. وصحيح أن الإدارة الأمريكية الجديدة بقيادة باراك أوباما وضعت لنفسها استراتيجية مختلفة فيما يتعلق بكيفية التعامل مع الشأن الأفغاني الشائك، قوامها مقاومة الحركات المتشددة في باكستان وأفغانستان عبر إرسال المزيد من القوات للقتال على الجبهة الأفغانية، وفي الوقت نفسه عبر زيادة حجم المساعدات المالية ودعم خطط التنمية الاجتماعية. غير أن الهدف النهائي المطلوب – وهو أن تضع دول جنوب آسيا وآسيا الوسطى معا يدها مع المجتمع الدولي و الولايات المتحدة وحليفاتها من اجل كسب معركة الرخاء والتنمية المستدامة والسلام المشترك – أمر تظلله الشكوك بسبب عقد موروثة من الماضي أو بسبب خلافات حول الحدود الجغرافية أو بسبب تنافس إقليمي لا معنى له إطلاقا.

وطبقا لمساعد وزيرة الخارجية الأمريكية لشؤون جنوب ووسط آسيا "ريتشارد بوتشير"، فانه "سيكون أمرا عظيما لو نجحنا في إفهام دول المنطقة أن أفغانستان لم تعد مشكلة وإنما صارت اليوم فرصة يمكن استغلالها لجهة التبادل التجاري والربط الكهربائي والاستثمار في شبكات الاتصالات". وفي هذا السياق ضرب المسؤول الأمريكي مثلا حول الطريق السريع القائم حاليا والذي يربط ما بين "ألماتي" عاصمة كازاخستان وكراتشي، الميناء التجاري لباكستان على بحر العرب، إذ اعتبره إنموذجا لما يمكن القيام به – بالتعاون مع الأمم المتحدة والدول والمنظمات المانحة – لإعطاء أفغانستان منفذا بحريا، يسهل عليها الاتجار مع العالم الخارجي، ويخرج أبناءها من العزلة الجغرافية الخانقة.

وجملة القول أنه لئن كان الوضع سوداويا ويسير من سيئ إلى أسوأ في ظل تصاعد العنف وتزايد الانقسامات في أفغانستان، فانه في المقابل حدثت بعض التطورات الايجابية الطفيفة. أحد الأمثلة على هذه التطورات هو أنه في عام ٢٠٠٣ أقدمت طهران على إبرام عدة اتفاقيات مع كابول محرضة إياها على التغلب على وضعها الجغرافي كدولة مغلقة – غير مطلة على البحار- باستخدام ميناء "تشابهار" الإيراني المطل على الخليج، وذلك كبديل لميناء كراتشي الباكستاني الذي ظل تقليديا يخدم تجارة أفغانستان. وبسبب المنافسة والعداء ما بين الهند وباكستان، رأينا نيودلهي تضع كل ثقلها خلف الفكرة الإيرانية. فهي لم تكتف مثلا ببناء ميناء "تشابهار" وإنما قامت أيضا ببناء شبكة الطرق والأنفاق الضرورية لربط أفغانستان به. وكرد على الخطوة الهندية، قامت إسلام آباد، ومن ورائها حليفتها الصينية، بتطوير ميناء "جوادر" البلوشي المطل على بحر العرب، ليكون حوضا للتبادل التجاري الحر، ومركزا لخدمة النمو التجاري والصناعي الهائل في الصين، ولا سيما في الأجزاء الحدودية المتاخمة لباكستان.

ومن جهة ثانية، فانه نظرا لأهمية الموانئ الباكستانية فيما يتعلق بالجهد الحربي والقتالي لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) في أفغانستان، استأثرت هذه الموانئ باهتمام الأمريكيين الذين لم يدخروا وسعا من اجل تطوير منشآتها وتحصينها ضد الأعمال التخريبية.

ومن الأمثلة الأخرى على التطورات الايجابية آنفة الذكر، ظهور نوع من الثقة والإحساس بضرورة الشراكة ما بين كابول وإسلام آباد لأول مرة منذ عقود من العلاقات البينية المتوترة أو المتوجسة. وهذا الذي ظهرت تجلياته في مذكرة تفاهم وقعت في السادس من مايو المنصرم حول انتقال البضائع والأشخاص، أنهى نصف قرن من الجدل والمراوحة وأرسى عهدا جديدا بحسب وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون التي شهدت الحدث وأشادت به كخطوة ضرورية نحو السلام والاستقرار والتنمية في المنطقة.

مثال أخير في السياق نفسه، هو أن ما كانت تروجه حركة طالبان وأعوانها بأن الغرب لم يعد يكترث لأحوال الأفغان وتحسين معيشتهم والاهتمام بتنمية أقاليمهم، صار كلاما لا ينطلي بسهولة على الأفغان، في ظل ثورة الاتصالات الراهنة التي فتحت أعين وآذان الكثيرين من الشعب الأفغاني على ما يجري حولهم. غير أن هناك من يحذر من استمرار تأخير مشروعات التنمية الهادفة إلى تحسين أحوال جموع الشعب الأفغاني، بمعنى أن أي تأجيل جديد في مد شبكات الطرق والإنارة والمياه الضرورية لتنشيط حركة التجارة وانتقال الأفراد والبضائع عبر الأقاليم النائية مثل بادغيس، سوف يصب في مصلحة الطالبانيين، بل و يدفع بعض الموالين لحكومة كرزاي إلى التمرد والالتحاق بالمتمردين على السلطة المركزية في كابول.

ويقول قائد العمليات في قيادة حلف الناتو في أفغانستان الجنرال مايكل توكير: أن أحد أسباب عدم تحقيق قواته لنجاحات حاسمة على الأرض الأفغانية هو غياب تأمين طرق الحركة والمرور والإمداد ضد الهجمات الفجائية من قبل المتمردين، وبما استطاع معه هؤلاء السيطرة على الطرق السريعة الحيوية. ويضيف الجنرال الذي سيترك أفغانستان هذا الصيف ليقود قوات بلاده المرابطة في كوريا الجنوبية قائلا: أن ذلك لم يكن فقط بسبب عدم وجود العدد الكافي من المروحيات القتالية التي يمكن أن تقوم بعمل رائع في هكذا وضع، وإنما أيضا بسبب انتفاء وجود قواعد صغيرة محصنة على جانبي الطرقات السريعة كي تهبط فيها تلك المروحيات من اجل التزود بالوقود والذخائر، ناهيك عن تحول قاعدة قندهار إلى مكان للراحة والاستجمام والتشمس بدلا من أن يكون مركزا للاستجابة السريعة لما يطلبه العاملون على جبهات القتال. ويرى الجنرال الأمريكي أن ما يجب أن تقوم به قوات الناتو المكونة في غالبيتها العظمى من الجنود الأسبان الآن هو الصراع من اجل استعادة السيطرة على الطرق السريعة، لأنها – بحسبه – هي مفتاح السلام والتنمية، ولا سيما الطريق الذي يربط العاصمة كابول بمدينة قندهار الجنوبية، حيث أظهرت الإحصاءات التي جمعتها منظمة الناتو أنه كلما زادت سيطرة القوات النظامية وقوات التحالف على الطرق السريعة وبالتالي قلت هجمات المتمردين عليها، ارتفع حجم استخدام الشاحنات لها، والعكس بالعكس.

تصاعد العنف يؤثر على حياة المدنيين

إعـــلام مـا بـعـد الحـــداثـــة ..

الصـورة بديـلا عـن الحقيقـة والإشـهار بديـلا عـن المعنـى

٢-٢

سعد القصاب

بمجموعة صور أخرى أو من خلال طبيعة العلاقة معها ، بذلك تحولت إلى حقل من الاحتمالات وفضاء من المعاني المتعددة. إن نجاحها يتعلق بقدرتها على الإيحاء بقراءة مختلفة عند كل لحظة من المشاهدة .

ولتقدير هكذا نجاح كان لابد من استخدامها في سياق مغاير وغرض آخر.هكذا باتت الصورة التي تلتقط للمجاعات في إفريقيا ، مثلا ، تستخدم أيضا كشواهد على مصاعب التنمية في الجنوب أو تصاحب موضوع العولمة وشراسة الشركات متعددة الجنسيات.

لقد مات المعنى الأصلي للصورة لتتوالد من خلال هذه النهاية معاني أخرى تنشر مع عشرات ومئات الموضوعات ،وهي في انتظار دائم للإعلام ليمنحها ما تحتاج إليه أو تعبر عنه أو تمرره .

فهي لم تعد شيئا عينيا ، ورقيا ، يمكن تحسسه بأطراف الأصابع ، بل صورة رقمية تنتقل من الغرفة المظلمة إلى الكومبيوتر ، لها القدرة على إنتاج نفسها بطريقة تتماثل مع الرسالة المراد إيصالها ،بعد إعادة تشكيلها والتلاعب بها ونقلها كوحدة الكترونية معلوماتية .

إن انتشار وهيمنة الصورة الرقمية جاء جراء احتكار الشركات العابرة للقومية للتقدم التقني في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية .فالصور ما بعد الحداثية ما عاد معها الوثوق بان ما نراه هو الحقيقي ، بل عبارة عن لحظة تحد تقني قادر على ابتكار خيال ما فوق واقعي لا يمكن اليقين به . كما أن التحولات البصرية التي جاءت بأثر الصورة الرقمية اصطنعت فعل اغتراب مابين الوسيلة الاجتماعية لفهمها وبين الخبرة الثقافية المعبرة أو ما تدعي التعبير عنها . إن استخدامها لمبدأ الإشهار والإعلان والجذب أصبح للتعبير عن قيمة استهلاكية وليست عن معنى ثابت .

كانت الصورة دليلاً للحقيقة في زمن الحداثة ليضفي عليها زمن " مابعد الحداثة "حالة عدم التحديد وهيمنة حتمية المعنى الجديد لها .

في حـرب الخـليـج الأولى تم التنسيق بين الإعـلام والعسكر، عن طريق وضعهم فيما سمي " بفرق الاستجابة الإعلامية "، و تشكيل وحدات بث متقدم يكون الصحفيون خلالها قريبين من موقع المعركة ،مقابل تزويدهم بوسائل بث فضائي عن مسرح العمليات وإيصال رسائلهم الإخبارية إلى محطاتهم الفضائية . في ممارسة كهذه ،حلت الصورة الرقمية المفترضة للحرب محل المشاهد الحربية عنها ، حيث التقطت صور لمقدمات القنابل الذكية وصواريخ كروز في ظل غياب صور لمشاهد الدمار ومشاهد القتلى والجرحى . وهو الأمر الذي دفع " بودريارد " إلى كتابة مقالات عن حرب لم تحدث أبدا ، في ظل غياب مشاهد الحرب الحقيقية التي كان يمكن لها أن تؤثر في الرأي العام العالمي .

لقد دعم هذا الاتجاه ، قوة وهيمنة المؤسسات الإعلامية الكبرى في الغرب ، ما دفعت حتى شركات كبرى أخرى للاستثمار في مجال البث الفضائي " وارنر ، دزني لاند ، نيوز كوربرشين " وخاصة في مناطق الشرق الأوسط واسيا وأوروبا الشرقية ما يدعم القبول الكوني لثقافة الدول الغربية .

إن الصورة الرقمية أو ما بعد الحداثية قادرة الآن على قتل الحقيقة واستبدالها بمفهوم زائف .

المضامين المتخيلة للواقع

يذكر الفيلسوف الفرنسي "بودريارد "بأننا بتنا نستمد وعينا بالواقع من التلفزيون " فكل ما يطلقه هذا الجهاز هو واقعي وحقيقي بامتياز ، ووحده من يمنح لأي قضية أهميتها المرجوة ، كما تكتسب كذلك ،ومن خلاله ، الخدمات والسلع جاذبيتها وسحرها . يميز المفكر الأمريكي " إيهاب حسن " حس امتلاك التلفزيون لصفات عديدة لـ "ما بعد الحداثة " ، تتمثل بالاحتفاء بالصورة بدل الكلمة ، ومحاولة الإشباع العاطفي بدل العقلي ، والانطباع السريع مقابل اليقين ، والتمسك بالترفيه بدل اكتساب المعنى ، فكل ما بعد حداثي هو غذاء التلفزيون اليومي .

تكمن حالة الظهور هذه في مضامين رئيسية يبثها التلفزيون ، مثل الأخبار ،البرامج الحوارية ، الدراما التلفزيونية والأغاني المصورة . إن أول خاصية إخبارية في الإعلام الفضائي الآن، هو ذلك الغياب الحاصل بين ما هو واقعي ومتخيل وما يفترضه من تعددية للحقيقة خلالها. فكل حدث صار يحتفظ بحقائق عدة ، سواء كان جريمة قتل ، كارثة أرضية ، أو حتى خبر رياضي . فالتغطية التلفزيونية لابد لها من أن تظهر على شكل انطباعات ذاتية ، وصور تسعى للتأثير في المشاهد ، وفي ظل غياب التوازن الهادئ للتعريف بما يحدث ، نجد صعوبة في اكتشاف ذلك الفرق بين الصواب والخطأ ، جراء التدخل المصطنع في تمويه الحقيقة .

لقد بات السؤال ليس ما تعنيه المضامين التي يبثها التلفزيون من خلال برامجه المتعددة بل ما تفعله هذه البرامج بالمشاهد، في ظل سطوة الرغبة بالإنتاج من اجل السعي لتقديم معنى إشهاري كل ما يتبقى منه هي الدهشة العابرة بمفردها .

فلم يعد هناك اهتمام يذكر بتلك النزعات الجادة التي كانت تناقش مشكلات إنسانية ملحة ، أو حتى القدرة على نقد نظام السلطة والقوة ، كما كان الأمر في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي .

أن ما نشاهده في الدراما التلفزيونية هو تبنى توليفة غريبة لموضوعاتها ،من متآمرين وسفاحين يقومون بجرائم غامضة ، ووجود رجال قانون ،أو مخلوقات فضائية أو حتى وحوش أسطورية . فهنالك دائما بطل ما يبحث عن حقيقة يتكشف بعدها وجود حقائق أخرى توازي عدد القصص التي تبثها هذه الدراما.

فيما تحوز الأغاني المصورة على مشاهدة مرتفعة ، خاصة لدى أعمار الشباب والمراهقين . نجد هذا الشكل الفني قد استفاد من التداخل بين صور غير مترابطة ومستعارة من فترات زمنية مختلفة ، ومنتجة بوسائل مختلفة ، متجاوزة للسياق الشكلي ووحدته . وهي تقتبس في مجال الموسيقى من ثقافات سمعية مختلفة ومتعددة الاتجاهات. ما يجعل الحكم عليها كثير الصعوبة سواء كانت عابثة أو جادة هابطة أو راقية .هذي الأغاني التي طالما تحتفظ بمشاهد ماسوشية وعدمية لافتة ، وكأنها تكتفي فقط بالتركيز على الإثارة والمتعة .

وتذكر عديد التحليلات أن الأغاني المصورة ما هي إلا أشكال يعاد تصديرها بطريقة لا تخلو من سطحية وغياب للعمق الفني ، وهي أيضا حافلة بصور وخيالات ممجدة للعنف والقوة والثروة ، مكتسبة أهميتها رغم ذلك ، من إقبال جماهير معينة لها في سياق ثقافي وذوقي معين . تعتبر الأغاني المصورة بحق أنموذجاً للشكل الإعلامي السائد في عصر ترسخت وتقدمت فيه ثقافة الصورة على ثقافة الكلمة .

الإعلان والتلاعب بالهوية

يسكن الإعـــلان قلب العملية الاقتصادية العابرة القومية ، جراء احتفاظه بقيمة رمزية أكثر من قيمته التبادلية والاستعمالية . فالسلعة أصبحت تقدر أهميتها من حيث المكانة التي تضفيها على المشتري . أن الإعلان بات لا يكتفي بأن يعرف بالمنتج والسلع والخدمات ، ولكنه يحث ويدعو ويشجع على طلبها ، فهو مشارك في توسيع الأسواق ، التي تحولت أن تكون فائقة العرض ، عبر دعمها بشبكات اتصالية سريعة وبنية اقتصادية قوية ، وبثقافة تعتمد على الصورة ليؤدي الإعلان دوره في ترويج السلعة وكأنها رمز. يربط نقاد مابعد حداثيين بين الإعلان والثقافة الترويجية ، هذه الثقافة التي أصبحت تضفي قيماً جمالية ورمزية على خبرات وسلع وأشياء وتقدم بشكل يومي للجماهير التي استبدلت عملية القراءة بمشاهدة الصورة ، ما اثر بشكل كبير على ارتباطه بالقضايا الاجتماعية والسياسية الملحة ، خاصة بعد أن وجدت حريتها في الاستهلاك الذي بات بديلا عن حريات سياسية واجتماعية غائبة ومقيدة . يذكر الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي " بيير بورديو " أن النزعة الاستهلاكية باتت قوة استحواذية لدى أفراد الطبقة الوسطى نتيجة تحسين أوضاعهم ، فبات اختلافهم في تذوق السلع والخدمات أ كثر أهمية من اختلافهم بشأن التعددية السياسية وعمليتها . اختلاف تحول من السياسة وتعدديتها إلى الأذواق والتسليع . ما أثر حتى على النظرة إلى الهوية . فالرجال باتوا يستهلكون سلعا كانت تعد نسوية ، السراويل كريمات الشعر ، كريمات البشرة ، في وقت كانت تعد سلع ذكورية ، حيث أصبح يتم استخدامها من قبل النساء ، الأزياء ، الحقائب ، الأحذية وغيرها ، يذكر بورديو أن ثقافة الإعلان ما بعد الحداثي ، هو تلاعب دائم بالسلعة / الهوية، وبات امتلاك السلع والحاجات اليومية يقارن بما هو مقدم في إعلانات التلفزيون ..يسعى الإعلام ما بعد الحداثي العيش في لحظة تاريخية مستقبلية غير واقعية تماما اسمها العالم الافتراضي لتجاوز الحد الواقعي والثقافي والسياسي والاقتصادي بين المجتمعات . وصناعة نمط علاقة مع العالم لم تعد فيها الحقيقة راسخة وإنما شيء ما جميل يمكن النظر إليه أو حتى تأمله . فيما الذات مكتفية باستهلاك السلعة بديلا عن حضورها الحقيقي في الوجود.

ثقافـة الوطنيـة بـين الشـعار والعمل

لطيف القصاب

يدور الحديث في العراق منذ مدة طويلة حول مفهوم الوطنية وما يسببه ضياع هذا المفهوم من نكبات على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولكن حتى هذه اللحظة الحاضرة فان هذا المفهوم ما يزال يشوبه الكثير من حالات الالتباس والضبابية وسوء الفهم نتيجة لدورانه في حلقة مفرغة وغير منتجة من التعريفات المتعسفة والمتضاربة والتي تترشح عادة من حوارات النخبة المثقفة وتنحى بغالبها الأعم منحى ايجابيا ومثاليا في توصيف ثقافة الوطنية. فهي تستدعي عند بعضهم وجود مواطن محب لوطنه حريص على البقاء فيه والانتماء إليه وعدم التفكير في الإساءة له ماديا أو معنويا مهما بلغت ظروف العيش داخل الوطن من الحدة والقسوة، كما يتطلب وجود الحس الوطني عند فريق نخبوي آخر الالتزام بمنهج السلطة الحاكمة وتنفيذ أوامرها من غير ما نقاش كما هو الحال في التلقين طويل الأمد للأيدلوجيات الليبرالية واليسارية والقومية التي تحكمت في صياغة وبلورة المشهدين الثقافي والسياسي في العراق ردحا طويلا من الزمان واحتكرت لنفسها حق تعريف الوطنية مثلما احتكرت لنفسها ما درجت على تسميته بالحكم الوطني أو المعارضة الوطنية. فيما انفردت جماعات فكرية أخرى بتبني مبدأ مناهض لفكرة الوطنية إلى الحد الذي توسم فيه الوطنية عند أشدهم ولوغا بالتطرف الاممي على أنها أي الوطنية مجرد وعاء للوثنية بالرغم من أن العديد من أصحاب هذه النظريات اخذ على نفسه مراجعة فلسفاته السابقة وتكييف ما برهن الواقع على مجافاته لحقائق الأشياء ومنها هذا الفهم المغلوط لمعنى ودلالات الوطنية. وبين خضم التعاريف السابقة والتجارب الوطنية بشقيها الحاكمة والمحكومة انقسم الشارع المحلي إلى تيارات عديدة انتهى الحال بأكثرها إلى تصور الوطنية على أنها سوق رائج للمزايدات واستهلاك الشعارات التي لاتسمن ولا تغني عن جوع، وأصبح الفرد العراقي بوجه عام غير مُكترث بفكرة الوطنية وناقم حتى على الوطن الذي تُنسب إليه هذه اللفظة كما بات ديدن الغالبية العظمى من العراقيين هو التفكير الجدي بعدم جدوائية البقاء في وطن ليس فيه للمواطن من قيمة تذكر سوى ما يقدمه من خدمة إجبارية لهذا الوطن المختزل برغبات ونزوات من رفعوا لافتة الحكومة الوطنية هذه الرغبات والنزوات التي تقاطعت تاريخيا وفي معظمها مع رغبات الفرد العراقي البسيط والذي لم يُصبح مواطنا بعد،إذ أن المواطنة حق لم ينله على مدى الأيام إلا القابضون على زمام الحكم والثروات وهؤلاء لا يمثلون نسبة معتدا بها من سكان العراق.

ولكن ما الذي أسس لشعور الكراهية في أعماق قسم من المجتمع العراقي ضد المكان الذي ولدوا وعاشوا وما يزالون يعيشون فيه باستثناء غلبة الطابع القمعي والدكتاتوري على حياتهم السياسية والذي أنتج بدوره شعورا شعبيا عاما بالغبن وولد ردات فعل ضد الدولة بوصفها كيانا سياسيا وإداريا غاشما، هل العراقيون يحملون في جيناتهم الوراثية نزوعا جماعيا يحملهم على كراهية الوطن أو هناك عوامل مكتسبة هي التي تقف وراء هذه الحالة الشاذة في سلوك هذه الجماعة البشرية ويدعوها إلى ممارسة أعمال الارهاب والفساد والسلب والنهب والتجاوز على ممتلكات الدولة ومنها ما يعود إلى أفراد عاديين كلما سنحت لها الظروف التاريخية مزاولة عمل من هذا القبيل؟.

إن الوطنية هي المولود الطبيعي لمشاعر المحبة والثقة المتبادلة بين الناس لا الكراهية والنفور من الآخر المختلف أيدلوجيا ومصلحيا، يقول المشتغلون في علم النفس السياسي في هذا الصدد إن قيم العدالة الاجتماعية تفترض الالتزام بمصالح الآخرين فإذا كان هؤلاء الآخرون ليسوا محل ثقة فان الالتزام بمصالحهم سيغدو ضربا من الخيال إن لم نقل الجنون وبالتالي انتفت ثقافة الوطنية في دول تختزن شعوبها لمشاعر العداوة بعضها ضد البعض الآخر. ولو رجعنا إلى تقصي جذور انعدام الثقة بين أطراف ومكونات الشعب العراقي على وجه التحديد لأمكننا بقليل من التأمل استقصاء عدة عوامل تصلح لتفسير انتفاء ظاهرة الثقة بين العراقيين تلي طبيعة النظام السياسي المتسلط من حيث المرتبة والقوة والتأثير ولعل في مقدمة تلك العوامل ما يلي:

اولا: التباين الديني والعرقي

ثانيا: الموقع الجغرافي

ثالثا: تركة الاستعمار وبضمنها فرز الطبقة الحاكمة وفرض الصيغ التي لاتراعي مصلحة الغالبية من افراد الشعب وترسيم الحدود الخارجية.

رابعا: تشتت المعارضة السياسية وتعدد ولاءاتها الفكرية وتصارعها على المصالح والنفوذ

خامسا: النظام العشائري

سادسا: التدخل الإقليمي والترحيب بهذا التدخل من قبل بعض المكونات

سابعا: النظرة الاجتماعية المتدنية للديمقراطية واحترام القانون

ثامنا: النظرة الاجتماعية المتدنية للعمل

يقول بعض علماء النفس السياسي إن الناس يرفعون من أهمية القيم التي يمكن الوصول إليها بيسر ويخفضون من أهمية القيم التي يرون أن الطريق إليها مسدود، ومن اجل فتح الطريق أمام قيمة حب الوطن التي هي الأساس في تشييد مفهوم الوطنية بمعناه الايجابي والمتداول بين الشعوب المتحضرة لابد من التركيز على ايجاد حلول ناجعة لاسيما للنقاط الأربعة الأخيرة التي ذكرناها آنفا بحيث يُصار إلى:

ان تحول لغة الشعارات الوطنية التي ترفع لواءها الدولة العراقية في هذه الايام إلى مواد وفقرات قانونية ملزمة لجميع المواطنين العراقيين وتعمل بصورة فاعلة وملموسة على صيانة مبادئ المساواة الواردة في الدستور بصرف النظر عن الاختلافات الجانبية.

ان تحفظ الدولة لاسيما الجهاز التنفيذي كرامة المواطنين ماديا ومعنويا وان تستبدل علاقة الخوف من النظام بقاعدة الاحترام لا على طريقة (احترم تُحترم) سيئة التطبيق.

ان تفتح الأبواب مشرعة أمام مشاركة الأكفأ من بينهم في صنع القرارات السياسية والإدارية والاقتصادية.

ان تتبنى الدولة مسؤولية التكفل بإيجاد آليات من شانها ترسيخ ثقافة الوطنية وتعزيز قيم التسامح وتقبل الآخر المختلف دينيا وعرقيا. ان يركز المسؤولون في الدولة على تقديم صورة في السلوك جديرة بالاحتذاء من قبل المستويات الدنيا. ان تجتهد مؤسسات الدولة خاصة الإعلامية منها على الإعلاء من قيم العمل والتعاون وتغليب المصلحة العامة على المصالح الأنانية.

ان يضع الجميع على عاتقهم مهمة سد الباب أمام التأثيرات الأجنبية التي تستهدف إحداث انقسامات مجتمعية بين المختلفين دينيا وعرقيا وسياسيا والحيلولة دون إحلال منظومة القيم البالية محل القيم المدنية الداعية إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان.

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@ yahoo.com